المحاضرة السابعة/ المرتكزات والأسس التي ينهض عليها والغايات التي يصبو إليها:

قلنا في الحصة التي تحدثنا فيها عن النقد الثقافي أن نقاد الثقافة لا ينقدون دون وجهة نظر محددة بل ثمة علاقة لهم بجماعات أو اتجاهات مثل الدراسات الكولونيالية ومابعدها الاتجاه النسوي ومابعده أو الماركسي حتى أن هناك من يطلق عليهم بالماركسيون الجدد أو الفرويدي ولذا فإن النقد الثقافي يتأسس دائما على منظور ما يرى الناقد من خلاله الاشياء ويعتقد بتفسير افضل للقضايا. وسنحاول التطرق لكل عنصر من هذه العناصر ونبدأ نقاشنا من الدراسات الكولونيالية ومنطلقاتها المعرفية.

أولا: الدراسات الكولونيالية ومنطلقاتها المعرفية:

إن الحديث عن الدراسات الكولونيالية هو حديث عن تلك القراءات المعرفية التي قدمها مجموعة من المثقفين للتجربة الاستعمارية التي مرت بها البلدان المستعمرة، أي أن الشغل الشاغل لهؤلاء هو دراسة تلك الآثار الأيديولوجية التي خلّفها الاستعمار، فإدوارد سعيد وفرانز فانون وغيرهم ينطلقون من فكرة مفادها أن الاستعمار هو فكرة فكرت فيها أذكى العقول في أروبا ولهذا توجهت دراساتهم لهذا المجال وعملت على تفكيك الأيديولوجيا التي تركها الارث الاستعماري في عقول من استعمرهم، وقد شكلت دراسات فرانز فانون وإدوارد سعيد إنجيلا لهذه الدراسات، وكيف لا وقد شكلت أيضا فيما بعد دراساتهم بابا واسعا لمؤسسي الدراسات مابعد الكولونيالة وعلى رأسهم هومي بابا وغاياتري سبيفاك من اجل الغوص في تركت الاستعمار وتوسيع ما دشّنه إدوارد سعيد وفرانز فانون، ولذا سنحاول هنا التعريف بإنجازات فانون ثم بعد ذلك نتطرق لإدوارد سعيد، دون أن ننسى وللتذكير أن فانون وسعيد ليس وحدهما من صاغا فقط هذا المجال بل تعد إنجازات الافريقي تشنوا آشيبي من خلال رواية الأشياء تتداعى، ونغوغي واثينغو والسنغالي حميدو خان والشاعر سينغور من بين أبرز من أسس لهذا الاتجاه، فقد شكلت كتاباتهم بتعبير بيل أشكروفت ردا بالكتابة على من يدعوا أنهم متحضرين ومثقفين.

1- فرانز فانون:

ولد فرانز عمر فانون سنة 1925 في المارتينيك لوالدان ينتميان لطبقة وسطى تلقى دروسه على يد الشاعر السنغالي المعروف إيمي سيزار وهو طبيب نفسانيّ وفيلسوف اجتماعي، عُرف بنضاله من أجل الحرية وضد التمييز والعنصرية. وقد انضم إلى المقاومة في المارتينيك بعد أن ضاق ذرعا بالحكم الفاشي ولذا اضطر أن ينضم للحرب العالمية الثانية في جيش فرنسا الحرة من أجل الدفاع عن الحرية وحارب ضد النازيين.

التحق بالمدرسة الطبية في مدينة ليون، وتخصّص في الطبّ النفسي وقد دافع عن أطروحته التي حولها فيما بعد إلى كتاب بعنوان بشرة سوداء أقنعة بيضاء فقد رفض المشرفون عليها في البداية فكرة الأطروحة كون فانون أدرك أن الثقافة الفرنسية مليئة بكل ما هو مركزي وعنصري فقد بنيت الثقافة الفرنسية على ثقافة الرجل الأبيض ثم عمل فانون بعد ذلك طبيباً عسكرياً في الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي، وعيّن رئيساً لقسم الطبّ النفسي في مستشفى البليدة جوانفيل في الجزائر، وحاول تطبيق بعض أفكاره الراديكالية من أجل إصلاح المستشفى، وقد انخرط بعد ذلك وفي عام 1955 صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية(F.L.N) بعد أن نشر كتابه العام الخامس والعشرون للثورة على الرغم من كونه مواطناً فرنسياً.

غادر فانون بعد ذلك سرّاً إلى تونس، وعمل طبيباً في مشفى منوبة، ومحرراً في صحيفة «المجاهد» الناطقة باسم الجبهة، كما تولى مهمات تنظيمية مباشرة، وأخرى دبلوماسية وعسكرية ذات حساسية فائقة وفي سنة 1960 صار سفير الحكومة الجزائرية

المؤقتة في غانا. توفي فانون عن عمر يناهز الـ36 بمرض سرطان الدم ودفن في مقبرة مقاتلي الحرية الجزائريين[1].

إن المقولة الأساسية التي تحكم الطرح الفكري لفرانز فانون في جل كتبه بدء بكتاب **معذبو الأرض** الذي وضع له جون يول سارتر مقدمة وصفت بأنها أعنف مقدمة مرورا بكتابة **بشرة سوداء أقنعة بيضاء** وكتاب **العام الخامس والعشرون للثورة** هي مقولة أنه **تماما كالأسود نتاج المجتمع الأبيض** وذلك بحكم تكوينه الثقافي فالمرء كما يقول «غني لأنه أبيض وأبيض لأنه غني»[2] ولا يمكن الجزم أنها فقط المقولة الأساسية الواحدة التي تؤطر كتب فانون كون كتابه معذبو الأرض تتحكم في مضامينه بالدرجة الأولى **مقولة العنف** التي ناقشها فانون في العنوان الأول ضمن هذا الكتاب، ففانون مقتنع أساسا أن ما أُخذ بالعنف لا يسترد إلا بالعنف، ولذا لا بد أن تكون ردة فعل البلدان المستعمرة بنفس ردة فعل العنف الذي تمارسه الدول المستعمرة، ولاشك أن الثورة الجزائرية أكبر مثال على العنف بمفهومه الفانوني ويقول فانون في كتابه معذبو الأرض في هذا الصدد «إن محو الاستعمار هو حدث عنيف دائما»[3] ويكمل فانون قائلا أيضا في موضع آخر إن «العنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري، والذي عمل بلا كلل على تحطيم صورة الحياة الاجتماعية لدى السكان الأصليين، وخرّب بلا قيود طرز الاقتصاد، وأشكال المظهر والملبس، سيطال به المستعمَر وسيتولاه في اللحظة التي يقرر فيها أن يكون هو التاريخ(...) فتغيير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر، ليس خطابا في المساواة بين البشر، وإنما هو تأكيد عنيف لأصالة تفرض مطلقة»[4] إذن وحسب فانون لا يمكن للبلدان المستعمرة أن تسترد حريتها ولا يمكن لها أيضا أن تستعيد كتابة تاريخها المسلوب إلا عن طريق العنف

---

[1]– ينظر: نايجل سي غيبسون: فانون المخيلة مابعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للدراسات السياسية، قطر، 2013، ص30.

[2]– فرانز فانون: معذبو الأرض، تر: سامي دروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط1، 2014، ص42

[3]– المرجع نفسه، ص39.

[4]– المرجع نفسه، ص 43.

والمقصود هنا بالعنف هو العنف المادي وليس العنف الرمزي كما قدمه بيار بورديو فيما بعد، ولا يمكن أن يفهم العنف هنا بالمفهوم البسيط كون تحليلات فانون تنطلق من الدرجة الأولى من مفاهيم الماركسية التي تعتبر أن الثورة هي مغيّر التاريخ، فمن دون ثورة حقيقة لا يمكن للطبقة العاملة أن تعيد كتابة تاريخها المسلوب من قبل الطبقة البرجوازية وهو الأمر ذاته الذي يجب أن يحدث مع المستعمر والمستعمر.

إن المواصفات التي يستعملها المستعمر دائما عندما يتحدث عن الشعوب المستعمرة هي مواصفات غير انسانية، فهذه الشعوب في نظرهم هي حيوانات شرسة يجب أن تروض، ويجب أن نتكلم معهم بنفس اللغة التي نتكلم بها مع الحيوانات، إنهم كما يقول فانون «يستعملون هذه التعابير، زحف العرق الأصفر، أرواث المدينة الأصلية، قطعان الأهالي، تفريخ السكان، إن المستعمر حين يريد أن يحسن الوصف وأن يجد الكلمة المناسبة يرجع دائما إلى الألفاظ المستعملة في وصف الحيوانات»[5]، ولهذا يجب على المستعمر التحرر من أجل أن نفرض على الوضع الاستعماري التجانس بل الخروج ولن يجد وسيلة أخرى سوى الهروب وهي نفس الصيغة التي صوّرها ياسمينة خضرا في روايته فضل الليل على النهار.

لقد أراد فرانز فانون أن يكون كتابه معذبو الأرض بيانا ضد الهيمنة الاستعمارية والامبريالية فقد دعا في هذا الكتاب الشعوب المستعمرة أن تستفيق من غفلتها وترفع راية الثورة والتحرر، ولا يمكن أن يتجسد هذا الفعل إلا عن طريق المقاومة كونها السلاح الوحيد الذي يستطيع المستعمر عن طريقه استعادة الأرض التي تعد بالنسبة لهذه الشعوب كما يقول فانون المصدر الوحيد الذي يؤمن الرزق والكرامة، ولا يتوقف فانون عند المقاومة فقط بل يتحدث أيضا عن البرجوازية الوطنية التي يعتبرها أشد خطورة من الاستعمار في حد ذاته كونها تكونت على ثقافته وتمتلك نفس استراتيجياتها ولهذا يرى أن ما يهدد فعل الثورة هي هذه الطبقة التي تخدم نواياها نوايا الاستعمار، ولا تخرج في فعلها عن ما قام به الاستعمار

---

[5]– فرانز فانون: معذبو الأرض، تر: سامي دروبي وجمال الأتاسي، ص44.

وفي هذا الصدد يقول فانون «لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين، وهم الآن للسلطة أبناءه المدللون أيضا، ينهبون الموارد الوطنية نهبا، ويندفعون إلى الإثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعا لا يرحم عن طريق الاستيراد والتصدير والشركات المغفلة ومضاربات البورصة والرشوة على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنيا»[6].

ينتمي فرانز فانون من خلال ما تركه لنا من إرث ثقافي إلى تيار فكري يطلق عليه الديكولونيالية décolonialisme وهناك فرق جوهري بين هذا التيار وما يسمى بالنيوكولونيالية أو الاستعمار الجديد néocolonialisme، وبين ما يسمى بمابعد الكولونيالية postcolonialism ، فالتيار الأول يحاول تفكيك الارث الاستعماري وهم عادة الذين لا تصنف دراساتهم ضمن المنافي أي أنهم يحللون الوضع من داخل الوطن ويكونون جزءا من أفراده فمثلا نصوص فانون كانت تحليلاته من أرض الواقع ولذا جاءت رؤيته رؤية ذات تأثير على منحى واسع وهو نفس الأمر كذلك مع ما كتبه شنيوا آشيبي ونغوكي واثينغو وألبير ميمي وغيرهم ممن كانوا يحللون الوضع الاستعماري من داخل أوطانهم، أما الديكولونيالية فتردف عادة بالإمبريالية فعلى الرغم من تخلص الكثير من الدول من الاستعمار والحصول على الاستقلال إلا أن ظهور دول عظمى أخرى كالولايات المتحدة الأمريكية والتي أصبحت تحدد مصائر هذه الدول جعل الكثير من المفكرين يرون أن الاستعمار لم ينتهي وقد بدأ بشكل جديد أشرس من سابقه التقليدي، فيما تختلف مابعد الكولونيالية تماما عن هذين التيارين كونها أولا ينتمي معظم من دشنوا لهذه الدراسات إلى مايسمى بالمنافي فقد كانوا يفككون ثقافة الاستعمار التي ترسبت في الدول المستعمرة انطلاقا من وضعهم في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد شكل مفهوم هذه الدراسات أو النظرية اختلافا كبيرا بين معظم النقاد نظرا لتواشجها وتداخلها مع مرحلة مابعد الاستقلال ومرحلة الاستعمار واقترانها بما يسمى بالمابعديات.

---

[6]– فرانز فانون: معذبو الأرض، تر: سامي دروبي وجمال الأتاسي، ص 49.

لكن من جهة أخرى، وعلى الرغم من هذه الضبابية التي تحيط بهذا المصطلح الذي أبهر العقل الأكاديمي على حد قول آنيا لومبا، حاول الدارسون الإحاطة على الأقل بمجال الدراسات التي ترتبط بهذا المصطلح. فاعتبر صاحب كتاب "**الترجمة والإمبراطورية**" دوغلاس روبنسون، أنه يمكن حصر "**الدراسات مابعد الكولونيالية**" في مجالات ثلاث تقوم على «دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ **استقلالها**...، والفترة التاريخية التي تغطيها هنا هي **مابعد نهاية الكولونيالية**...، أو دراسة مستعمرات أوروبا منذ **استعمارها**...، والفترة التاريخية التي تغطيها هنا هي ثقافات **مابعد بداية الكولونيالية**...، أو بوصف آخر وبلغة أكثر اتساعا نوعا ما، دراسة جميع الثقافات/ المجتمعات/ البلدان/ الأمم/ من حيث **علاقات القوة** التي تربطها بسواها من الثقافات/ المجتمعات/ البلدان/ الأمم/...، والفترة التاريخية التي تغطيها هنا هي التاريخ كله».[7]

من خلال هذه التعاريف، يمكن أن نقول إن القبض على مصطلح اسمه "**مابعد الكولونيالية**" هو شبيه بشيء اسمه القبض على الدلالة/المعنى/الحقيقة عند رواد مابعد الحداثة (نيتشه، دريدا....). أو بلغة صامويل جونسون*Samuel Johnson هو محاولة لاعتقال "**الشمس أثناء سيرها في السماء**". فالتعريف الأول يخدم طبقة دون أخرى، والأمر نفسه مرتبط بالتعريف الثاني لأن «الصراع الثقافي بين الإمبريالية والمجتمعات التي تعاني الهيمنة لا يزال مستمرا إلى الوقت الحاضر».[8]

---

[7]– دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية –نظريات الترجمة مابعد الكولونيالية، ص 32.

*– **صامويل جونسون** ولد في18 سبتمبر1709 وتوفي في 13 ديسمبر1784. كان أديبا، وكاتبا، وناقدا، وشاعرا بريطانيا، له إسهامات هامة في الأدب الإنجليزي. كان ينتمي للطائفة الإنجليكية وهي تقليد داخل المسيحية، يضم كنيسة إنجلترا.

[8]– بيل أشكروفت، بال أهلواليا: إدوارد سعيد مفارقة الهوية، تر: سهيل نجم، مر: حيدر سعيد، دار نينوى، دمشق، ط1، 2002، ص 25.

أما التعريف الثالث، فعلى الرغم من شموليته واتساعه إلا أنه يبقى في الأخير «طريقة في النظر إلى القوة بين الثقافية، والتحولات النفسية الاجتماعية التي تحدثها ديناميات الهيمنة والإخضاع المتوائمة، والانزياح الجغرافي واللغوي».[9] والنقطة الأساسية التي تتمحور حولها التعريفات الثلاث السابقة، تقوم بالأساس على حتمية التمييز بين فترة مابعد الاستقلال والمرحلة الكولونيالية عن مرحلة مابعد الكولونيالية. فما قبل الاستقلال هو حدث تاريخي في تاريخ تلك الأمة (الاستعمار*). وما بعد الاستقلال هي فترة التخلص سياسيا من براثن الاستعمار. وهنا يمكن الحديث عن تلك المحاولات التي قام بها كل من شينوا أشيبي Chinua Achebe في روايته "**أشياء تتداعى**"، وما جسده نغوغي واثينغو Ngugi Wa Thingo في كتابه "**تصفية استعمار العقل**". وعادة ما تصنف هذه الدراسات تحت ما يطلق عليه بـ"الديكولونياليزم" décolonialism أي "**تصفية الاستعمار**". أما "**مابعد الكولونيالية**" postcolonialism فهي آلية "**عبر ثقافية**" تتجاوز كل التنميطات السابقة لتشمل «كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا الحالي».[10]

والتعريف الأخير –حسب ما نعتقد– هو الخيار المنهجي الذي سعى إليه إدوارد سعيد في كتابه "**الاستشراق**"؛ فقد أراد إدوارد سعيد إماطة اللحاف الإيديولوجي المتخفي/الغامض وراء مؤسسة اسمها الاستشراق، والتي استطاعت من خلال مجموعة من النصوص (وصف مصر، أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم، رحلة في الشرق...) أن تصنع شرقا

---

[9]– دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية –نظريات الترجمة مابعد الكولونيالية، ص 35.

*تجدر الإشارة هنا أنه يوجد فرق بين استعماري وكولونيالي في الدراسات مابعد الكولونيالية؛ فمفردة استعمار تدل على تلك العلاقة التي تربط بين المستعمِر والمستعمَر، وهي علاقة هيمنة واستغلال...، أما مصطلح كولونيالي فهي مفردة ترتبط بوجود معين. أي أن استخدامه لهذه اللفظة يرتبط بالمستعمِر كما يرتبط بالمستعمَر، فضلا على هذا يوجد عرق لغوي إنجليزي ترد فيه الهند الكولونيالية كما يتحدث عن بريطانيا الكولونيالية. هومي بابا ص 68.

[10]– بيل أشكروفت، غاريث عريفيث، هيلين تيفن: الرد بالكتابة – النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ص 16.

لغويا/نصيا، ويتحول عن طريق تجسيد تلك الطموحات الإمبريالية (نابليون، دي ليسيس...) إلى واقع جغرافي يسعى الأوروبي/الغرب إلى السيطرة/الهيمنة عليه.